الصلب في أسبابه وأهدافه

الأب ريمون الهاشم

ما زال العالم إلى اليوم يرى في الصلب عملاً جبّاراً قام به المسيح من أجل البشريّة جمعاء، ويسوع إن أتى، مُرسَلاً من الآب، أتى ليمرّ بالصليب كي يتمّم العمل الخلاصي الذي حضّر له الخالق منذ البدء. ولكن مع مراجعة ما لدى الكنيسة من خبرات روحيّة وتطلّعات لاهوتيّة، ارتأينا إعادة طرح الأسئلة التالية:

هل جاء المسيح كي يموت على الصليب ليخلّص العالم؟ وهل يا ترى العمل الإجرامي الذي افتعله اليهود ضدّه كان أمراً رضي الله عنه؟ وهل كان الصلب أمراً محتوماً؟ وما هو الخلاص؟ هل هو نوع من عمل تمّمه المسيح بصلبه واستفاد منه الكون عامةً وانتهى، أمّ ماذا؟ هل مات المسيح لأنّهم شكّوا بالمبادئ التي بدأ بتعليمها ونشرها منذ اللحظة التي أظهر بها نفسه أمام العالم؟ وهل اعتبروه الرجل السياسي المشاكس الذي بسياسته سيشكّل خطراً فادحاً على الشعب اليهودي والحكم الروماني؟

للإجابة عل هذه الأسئلة سأستعين بالنصوص الإنجيليّة كما وصلتنا، وذلك دون التطرّق إلى نصوص الرسائل، أو إلى نصوص تاريخيّة أخرى لكي أتجنّب، ولو بصعوبة، الوقوع في أزمة التحاليل المعقّدة.

١- هدف تجسّد المسيح، الموت أم الرسالة؟

عندما تجسّد المسيح وقدم المجوس من المشرق، كما هو معلومٌ في إنجيل متّى ٢: ١-١٨، تحرّك هيرودس وجمع كلّ رؤساء الكهنة ومعلّمي الشعب وسألهم أين يولد المسيح؟ (آ ٤). واجه هيرودس وبكامل وعيه الابن المتجسّد

لأنّه استند إلى الكتب المقدّسة التي أُوحَت له ببيت لحم مكان وجود الطفل، وطلب من المجوس سرّاً أن يستعلموا عن الأمر ليجدوه فيقتله (آ ٧). عندما علم المجوس بنوايا هيرودس الغادرة، سجدوا للطفل ورحلوا حالاً. بعد ذلك تدخّل الربّ مباشرة وقام باستبعاد ابنه إلى مصر (آ ١٣-١٥)، وقام هيرودس بتنفيذ مجزرة بيت لحم التي مات فيها وجوارها كلّ طفل له من العمر سنتين وما دون (آ ١٦) ظنًّا منه أنّه بعمله هذا يقضي على الملك المنتظر ويحافظ على مُلكه.

شابه المسيح الطفل باقي أطفال أورشليم الذين حملوا على أكتافهم خطيئة هيرودس الذي، برفضه للتجسّد الإلهي، قام بمحاولة فاشلة لقتل المسيح. نحن الذين نؤمن اليوم قائلين: إنّ المسيح خلّصنا بموته على الصليب، أطَرَحنا يوماً ما على أنفسنا السؤال التالي: أكان تمّ الخلاص لو قُتل المسيح مع أطفال بيت لحم؟ لماذا استبعد الخالق ابنه الوحيد من درب هيرودس؟ لو كان الخلاص بالموت لَمَا كان الآب جنّب ابنه الموت خلال هذه المجزرة. في الواقع، لقد قام الخالق بتخليص ابنه ردّاً على انتظار المؤمنين، وذلك مع احترامه التام لرأي هيرودس. والواضح في الأمر أنّ الآب ما أراد أن يمسّوا ابنه بسوء لأنّه لم يتمّم رسالته بعد.

٢ – الدوافع التي أدت إلى قتل المسيح، سياسيّة ثوريّة أم عقائديّة رفضيّة؟

أ – دوافع سياسيّة ثوريّة

عندما جاء اليهود بالمسيح إلى بيلاطس، وفي نيّتهم إدانته وقتله، لم يكن عند هذا الأخير أيّ سبب يدفعه للردّ على رغبتهم سوى إرضائهم، لكي يتجنّب ميولهم الشريرة ضدّه. لقد عبّر بيلاطس عمّا يجول في خاطره وعن براءة المسيح من أي عمل ثوري أو سياسي قد يكون افتعله ضدّ الدولة الرومانيّة أو ضدّ مصالح أفرادها، وذلك من خلال امرأته التي قالت له: "إيّاك وهذا الرجل الصالح" (مت ٢٧: ١٩)، ومن خلال أسئلته التعجّبيّة عندما قال: "وماذا أفعل بيسوع الذي يُقال له المسيح؟ فأجابوا كلّهم: "أصلبه"، قال لهم: "وأيّ شرٍّ فعل؟" (آ ٢١-٢٢).

ولمّا علم بيلاطس بما ينوونه قال: "أنا بريء من دم هذا الرجل!". وسلّمه إلى إرادتهم قائلاً: "دبّروا أنتم أمره" (آ ٢٤). تحوّلت قضيّة يسوع إلى لعبة سياسيّة بين بيلاطس واليهود، وصار صلبه أمراً محتوماً إرضاءً للخواطر.

ب–دوافع عقائديّة رفضيّة

عندما تسلّم اليهود زمام الأمور، عادت المواجهة لتكون، ليس بين المسيح واليهود لأنّ براءته ثبتت بمواجهته مع بيلاطس، وليس بين المسيح والشريعة لأنّ المسيح أعلن سابقاً أنّه لم يأتِ لينقض الشريعة بل ليكمّل (مت٥: ١٧)، بل بين كلمة الآب التي قيلت على لسان المسيح والمعتقدات اليهوديّة المستنبطة من شرحهم للشريعة؛ أليسوا هم القائلين: "إنّه يضلّل الشعب" (لو٢٣: ١٤؛ يو٧: ١٢). أمّا بالنسبة إلى عبارة ضلال الشعب، فهي تعني انحرافه عن الخط المستقيم، أي عن المفهوم الصحيح لكلام الأنبياء وللشريعة. بذلك تكون كلمة الآب نفسها هي التي تُشكّل حجر العثرة لليهود.

عندما عاش المسيح على الأرض، نظرت إليه البشريّة من منظار بشريّ. هو الإله الذي تجسّد واستوعب بشريّتنا، حكم عليه اليهود كما لو كان بشريًّا عاديًّا محدوداً مثلنا، وصاروا ينتقدونه ويغالطونه بطرح أسئلة تحمل عدة علامات استفهام على أقواله وأعماله التي تغالط تفاسيرهم الخاصة بالشريعة.

كان الفرّيسيون ضدّ الكلمة، أمّا خطّتهم فكانت تقضي بالتآمرعلى المسيح وقتله: "وخرج الفريسيون وتآمروا عليه لكي يُهلكوه" (مت١٢: ١٤–٢١). في الواقع، لم يكن لدى الفريسيين وباقي اليهود أيّ تخوّف من أن يأخذ يسوع الناصريّ ملكهم الأرضي. وذلك لأنّ الفريسيين كانوا يتحلّون بمعتقدات خاصّة بهم، وهم يعيشونها ولا يريدون تغييرها أو تغيير قناعتهم بها إطلاقاً. وعندما شفى المسيح جميع الذين تبعوه، أمر بألاّ يُنشر الأمر ليتمّ ما قاله النبي أشعيا: "هوّذا فتاي الذي اخترته، الذي رضيت به نفسي. سأجعل روحي عليه، فيبشّر الأمم بالحق" (آ ١٨). فإذاً، هذا ما قام به يسوع، التبشير فقط، ولكنّ الذين تحلّوا

"بالتشبّص"، ورفضوا الخروج من معتقداتهم، نبذوا كلّ كلمة صدرت عن المسيح ابن الخالق، لم يقف المسيح ضدّهم، ورفض مواجهتهم، وحتّى أنّه لم يجادلهم من أجل إقناعهم. لقد قال التوجيه والكلام والتعاليم السماويّة التي ينبغي قولها، وتابع فقط الذين أصغوا إلى كلامه. لم يُلزِم أحداً بكلامه، ولم يؤذِ أحداً به، وكلّ الذين رفضوه ابتعد عنهم ولم يعد ينظر إلى الوراء. كلام المسيح، أي كلام الحق، هو دعوة موجّهة إلى اليهود كي يتخلّوا عن المفاهيم الخاطئة المعتادين عليها.

لقد كان اليهود متعمّقين فعلياً في الكتب المقدّسة لأنّهم كانوا يحسبون أنّ لهم فيها الحياة الأبديّة، وهي تشهد فعليّاً للمسيح (يو٥: ٣٩). لقد ظلّوا بعيدين كل البعد عن جوهر البشارة الذي عبّر عنه التلاميذ بقولهم: "إلى مَن نذهب يا ربّ، وكلام الحياة عندك؟" (يو٦: ٦٨). لقد تملّك فيهم روح الاستبداد وإرادة الحكم التي دفعتهم إلى الاستبداد برأيهم الذي ينبغي أن يسود دون غيره. إنهم يريدون لقرارهم الغلبة، وليس هناك من رأي آخر بينهم حتّى لكلمة الآب السماوي التي وصلت إليهم من باب المسيح. أمّا المعرفة فهي ملكهم، ولا وجود لها في مكان آخر. وكلّ ذلك أفقدهم حسّ التواصل المباشر بينهم وبين الكلمة.

أمّا الهدف الأساسي من صلبه بالنسبة إليهم هو إسكاته كي لا يعلّم ولا يوجّه ولا يتكلّم ولا يبشّر بهذه الأمور أبداً. نستنتج ممّا ورد أنّ صلب المسيح هو صلب كلمة الآب للتخلّص منها.

٣-صَلب المسيح وقتله، مساهمة في خلاص البشريّة؟

هل ساهم اليهود، عندما صلبوا المسيح، في خلاص البشريّة جمعاء؟

إذا وافقنا على القول بأنَّ قتل المسيح كان عملاً صالحاً، فهذا يعني بأن هناك اتفاقاً مسبقاً بين الآب واليهود للقيام بجبر المسيح على المرور بالصلب ليتمّ الخلاص. والصلب بحدّ ذاته هو عمل شنيع وليس من اختصاص الخالق، بل من اختصاص أهل الأرض، لذلك فلا يُعقل أن يكون للقتل دور في الخلاص.

٤-الصلب أمر محتّم؟

هل الصلب هو أمر محتّم؟ خاصة وأنَّ المسيح أعلن عنه، حسب النصوص الإنجيليّة، قبل حدوثه (مت ٢٦: ٢ ؛ لو٢٤: ٧)؟

إنّ كلام المسيح عند الناس نبوءة، والنبوءة تبقى دائماً عامل انتظار يدفع الناس إلى الترقّب حتى تمامها. ولكن الهدف الأساسي الذي أتى من أجله المسيح على الأرض هو تعليم البشريّة كيفيّة تخليص نفسها من كل شيء قد يزعج سلامتها.

لقد تنبّأ المسيح في مت ٢٤: ١-١٤ على الحروب والزلازل والمجاعات والانقسامات والانشقاقات. في الواقع، عندما أتى المسيح كانت البشريّة وما تزال تمرّ بهذه النكبات قبل وأثناء تجسّد المسيح. والبشريّة كانت ضالّة عن كلام الآب وتعاليمه وتوجيهاته، لأنّها عبدت الأوثان والأصنام والأشخاص. ولكن عندما نظر المسيح وأكّد أنّه، من خلال تعاليمه، هناك في قلب الخليقة عقول ما زالت ترغب في البقاء مقفلة حاجبة عنها الحقيقة التي أرسلها الله بواسطة ابنه الذي نطق بهذا الكلام الذي نصّه الإنجيل لنا. لقد تكلّم المسيح على خراب الهيكل وعلى الحروب والمجاعات والزلازل، وعلى تسليم الرسل إلى الضيق والقتل، وعلى البغض الذي سيلف الناس لتُبغض بعضها البعض. إنّ رفض الإنسان للتعاليم الجديدة التي علّمها المسيح سوف يولّد هذه النكبات.

إذاً، فالكلام الذي نطق به المسيح ليس بنبوءة علينا انتظارها كي تتمّ، بل واقع سيتكرّر طالما هناك أشخاص ما زالوا بعيدين عن أن يتبنّوا كلام المسيح وتعاليمه.

وعندما تحدّث المسيح أمام تلاميذه عن موته وقيامته قبل حدوثهما، كان قد تلمّس الرفض نفسه الذي عانى منه الأنبياء الذين سبقوه ونقلوا كلام الله على مسامع الشعب وقُتلوا من أجله. أليس هو الذي قال: "الويل لكم يا معلّمي الشريعة والفرّيسيون المراؤون، تبنون قبور الأنبياء...، فتشهدون على أنفسكم بأنّكم أبناءُ الذين قَتلوا الأنبياء. فتمِّموا ما بدأ به آباؤكم... لذلك سأرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلّمين، فمنهم مَن تقتلون وتصلِبون، ومنهم مَن تجلِدون في

مجامعكم...، حتى ينزِل العقاب على سفك كلِّ دمٍ بريءٍ على الأرض... كم مرّة أردتُ أن أجمع أبناءَك...، فما أردتم. وها هو بيتكم متروك لكم خراباً" (مت ٢٣: ٢٧-٣٩). النكبة إذاً مرهونة بالموقف الذي يأخذه الانسان من كلمة الآب المرسلة بواسطة الأنبياء والمسيح، لذلك أنهى يسوع كلامه قائلاً: "أقول لكم: لن تروني إلاّ يوم تهتفون: تبارك الآتي باسم الربّ" (آ ٣٩). والمسيح بوصف كهذا وضع نفسه ضمن هذا الإطار، لأنّه ينتمي إلى المصاف نفسه، ولأنّه عالم أنّ الصلب أو الجلد أو القتل أو حتّى المستقبل بذاته هي أمور مرهونة بحرّية الإنسان وبموقفه الرافض من الكلمة.

٥ - التعرّض للصلب موقف لا بدّ منه؟

أمّا السؤال الذي يطرح نفسه بعد كلّ ما أتينا على ذكره فهو التالي: هل مات المسيح من أجل كلمته أم من أجل البشريّة التي رفضت قبول كلمته؟ وما هي أهداف الصلب أو منافعه إذا صحّ القول؟

صلّى المسيح في بستان الزيتون منفرداً، واستعمل عبارة ما زلنا إلى اليوم نتساءل ما الذي عناه بها وهي التالية: "يا أبي، إذا كان لا يمكن أن تعبر عنّي هذه الكأس، إلاّ أن أشربَها، فلتكن مشيئتُك" (مت ٢٦: ٣٩، ٤٢). عندما تمّم الابن رسالته، وقفت حرّية الإنسان في وجهه وخطّطت لقتله (يو ٨: ٣٧،٤٠)، والآب في هذه الحالة لم يتحرّك ساكناً، ولم يقم بالعمل نفسه الذي قام عندما استبعد الطفل عن مجزرة بيت لحم. لماذا؟

أوّلاً: مشيئة الآب تكمن في الحرّية التي خلقها في الإنسان، والتي ما أراد أبداً اعتراضها. والذي أراد قتل الابن هي حرّية الإنسان التي تحرّكت عندما قُرعت أبوابها بواسطة الكلمة التي طرحها المسيح على مسامعها. إذاً، فالصلب هو من عمل حرّية الإنسان وهو خاص بها. وبما أنّ المسيح هو "الكلمة"، كما يقول عنه يوحنّا في مقدّمة إنجيله، فقد قامت الكلمة بتخضيع نفسها لحرّية الإنسان

المعطاة من الآب ذاته، لذلك قال المسيح في جبل الزيتون: "لتكن مشيئتك"، كي لا يعترض هذه الحرّية ويُلزمها بشيء. ولأنّ الكلمة لم تكن قيلت بعد على أيّام هيرودس، فلم تحدث أيّة مواجهة بين الآب والحاكم. في الواقع، احترم الآب رأي هيرودس، واستبعد الصبي، لأنّ حرّية هيرودس ظلّت بعيدة عن أيّ عرض قد يضعها أمام خيار من خيارين أو أمام طريق من طريقين. لذلك، فقتل الصبي من قِبل هيرودس إن تمّ فلن ينفع بشيء.

ثانياً: مشيئة الآب إذاً ليست الصلب بل خضوع الابن لحرّية الإنسان من أجل احترامه وعدم اعتراضه لهذه الحرّية التي هي صورته ومثاله المتواجدة داخل عقل كلّ إنسان.

لنأخذ الأمور من زاوية أخرى كي نستطيع أن نراها بوضوح أكثر، ولنطرح السؤال على الشكل التالي: لو تدخّل الآب وأنزل ابنه عن الصليب، فما الذي كان حدث؟ في الواقع، لو أنزل الآب ابنه عن الصليب لكان تحدّى البشريّة وألزمها بكلّ الرسالة التي أرسل ابنه الوحيد من أجلها. وبذلك نختار كلامه مجرّدين عن حرّيتنا. عندما يتصرّف الآب مع البشريّة بهذه الطريقة، يحترم مقدرة الإنسان، ويعطيه السلطان كي يختار هو بنفسه مصيره، فإمّا أن يختار الكلمة وينال الخلاص، وإمّا أن يصلُب الكلمة فيختار النكبة أي الهلاك.

ثالثاً: نستنتج ممّا ورد أنّ الآب أنعم على أهل الأرض بالمعرفة، أي أنّه وضّح للبشر الطريق والحق والحياة، ولم يُلزمهم بها لأنّه فتح أمامهم باب الاختيار وخضّع ابنه لحرّيتهم. ولكنّه لو استبعد ابنه وجنّبه الصليب لَمَا كان للملكوت من وجود، وصارت الأرض المكان الوحيد لعيش الكلمة التي أرسلها الآب مع ابنه من أجلنا، وصار الإنسان مُجبراً على الالتزام بالكلام المُنزل. في الواقع، قال الآب كلمته وجسّدها على الأرض ليصعد أهل الأرض إلى السماء، ويعيشوا في الملكوت، لا ليبقوا على الأرض. أمّا الصعود إلى الملكوت فمرهون بحرّية الإنسان وقناعته عندما يسمع الكلمة ويختارها بملء حرّيته.

الخاتمة

أمّا بعد أن أنهى الإنسان دوره تجاه المسيح وحقّق ما يصبو إليه بقتله للابن ووضعه في القبر، جاء دور الآب الذي تسلّم ابنه وأقامه من القبر ورفعه إلى السماء. وإذا ما نظرنا بعمق أكثر إلى موضوع قيامة المسيح التي تمّت من دون شهود، والتي خلقت الشكوك في نفوس اليهود، نرى بأنّنا أمام حدث غير مُلزِم كما جرى تماماً أثناء الصلب. إنّ الإنسان المؤمن فقط يستطيع بمعونة الروح أن يرى الذي قام من بين الأموات.